# تنوع الوظائف في السرد العربي القديم
# (كتابات القرن الثالث للهجرة أنموذجا)

أ شراك حفصة أ د عزلاوي محمد
جامعة الجلفة

**ملخص مقال:**

تعددت أشكال الفنون السردية في الأدب العربي القديم وتنوعت أنماطه في طائفة من القوالب في الأخبار ،والأسمار والحكايات والنوادر، والأساطير والخرافات ، وقصص الحب ، وقصص الجن وأسجاع الكهان والأمثال ، ثم مع دخول الإسلام كان القصص القرآني من أهم القوالب السردية التي تستحق الدراسة ثم الحديث النبوي الشريف الذي يحمل الكثير من ملامح السرد ، وبعد بداية حركة التدوين في القرن الثاني والثالث للهجرة وما بعدهما برزت أشكال سردية أخرى أكثر أحكاما وأوفر في الخصائص السردية كفن الرحلة والمقامة ، والرسالة والقصص الديني ، والقصص التاريخي والقصص الرمزي .

ولكن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن في أمر هذه الأشكال السردية : هو كيف نشأت ؟ ولأي الأغراض وجدت ؟ وما هي الفوائد أو الوظائف التي تقدمها ؟ وما طبيعة هذه الوظائف ؟ وهل هي وظائف فنية أو اجتماعية أو سياسية ؟ أم لكل نمط من هذه الأنماط وظيفة فنية أو تداولية يؤديها ؟.

وللإجابة على هذه الأسئلة لابد من استقراء طائفة من النصوص التي تنتمي إلى الفترة التي حددت لهذه الدراسة ،و هي القرنان الثاني والثالث الهجريان أي : أن هذه الفترة هي التي وجدت فيها مؤلفات سردية هامة من قبل أعلام كبار ، من أمثال ابن المقفع في كتابه " كليلة ودمنة ، " والجاحظ في كتاب " البخلاء " والمبرد في كتابه " الكامل " ، وابن قتيبة في " عيون الأخبار، و " سهل بن هارون في كتاب " النمر والثعلب ".

ومن الوظائف العامة التي يمكن الوقوف عنده في هذه النصوص والتي أشارإليها بعض الدارسين نظريا وهي :

1 -الوظائف السردية

2 - الوظائف التحكمية

3 – الوظائف الابلاغية

4 - والوظائف القياسية

5 - والوظائف الطارئة

وغيرها من الوظائف التي تحكم هذه المصنفات والتي لأجلها ألفت ودونت ، مع الوقوف على الوظائف الثابتة والوظائف المتغيرة والآنية .

ولهذه الدراسة : يمكن الاستعانة ببعض الدراسات الحديثة ،إضافةإلى المدونة التي نشتغل عليها ، وهذه الدراسات الحديثة منها ما كتبه بعض الأجانب : مثل " جرار جنات" و " بول ريكور" وغيرهما .

وأما الدراسات العربية نذكر منها :

- السردية العربية – ابراهيم عبد الله .
- الخبر في السرد الغربي – جبار سعيد .
- الخبر في الادب العربي – محمد القاضي

وغيرهم.

**مقدمة :**

شهد القرن الثالث للهجرة نشاطا مكثفا لحركة التأليف في شتى الفنون و شهد بروز أعلام كبار اشتهروا بالكتابة الفنية من أمثال الجاحظ و المبرد و ابن قتيبة و غيرهم .

و كثرت في هذا العهد مجالس الأدب و ازدحمت مجالس الخلفاء و الوزراء و الحجاب و القضاة بالأدباء .

وازدهرت حركة السرد و القص ، و عجت بها المجالس ، و الأسواق و اتجهت العناية إلى تدوين الأخبار و الحكايات و القصص ، و ترجمة بعض كتب القصص مثل كليلة و دمنة .

و حينما نتأمل في المدونة السردية و ننظر في تنوع نصوصا يتبادر سؤال إلى أذهاننا ؟ و هو لماذا كثرت حركة السرد و ما هو الهدف و المقصد من شيوعها ؟ و ما هي المؤسسة أو الجهة الدافعة إلى تحريك عملية السرد ؟.

و ما هي الوظيفة أو الوظائف المنوطةبهذه الظاهرة ؟

ثم ما هي أهم الملامح التي تطبع هذه النصوص السردية ؟

و للإجابة على هذه الأسئلة المطروحة ، رحت أبحث عن الدراسات التي ستضطلع بهذه المهمة ، والمظان التي تحتوي النصوص السردية محل الدراسة .

فحصلت على طائفة من المؤلفات التي اهتمت بالسرد العربي القديم ، و لعل أهمها ما كتبه عبد الله إبراهيم في " موسوعة السرد العربي " . و ما كتبه إبراهيم صحراوي في كتابه " السرد العربي القديم " الأنواع و الوظائف.

و ما كتبه عبد الفتاح كليطو و سعيد يقطين و غيرهم .

إضافة إلى العثور على كثير من نصوص الأدب القديم في السرديات ، في البيان و التبيين للجاحظ ، و في عيون الأخبار لابن قتيبة و الكامل للمبرد .

و خاصة ما جاء في مقدمات هذه الكتب ، لأن لكل كاتب من الكتاب القدماء ، يقدم في ديباجة كتابه أهم الموضوعات التي يعالجها ، و المنهج الذي سيسير عليه و المقاصد التي

ينشدها ، و من ثم فإني اتخذت المقدمات كمدونة لاستخلاص أهم الوظائف السردية في كتابات القرن الثالث للهجرة .

و قد اخترت لهذا البحث المنهج الوصفي التحليلي ، الذي ينطلق من جمع طائفة من الأفكار و الملاحظات الجزئية و استقراءها للوصول إلى أحكام عامة و نتائج مطردة في هذا الموضوع.

و تبين لي بعد فحص و قراءة ، أن أنجز مداخلتي وفق العناصر الآتية :

- وقفة مع المصطلح المتعلق بالسرد .
- المقصود بالوظائف السردية وأهمأنواعها .
- الوظائف السردية في نصوص القرن الثالث للهجرة .
- خلاصة لأهم النتائج .

**مفهوم السرد :**

اعتنى الكثير من الدارسين في مطلع العصر الحديث أن يحددوا مفهوم السرد في جانبه اللغوي ، و جانبه الاصطلاحي وبحثوا في الاشتقاقات المختلفة لكلمة " السرد " في المعاجم اللغوية ، و اتفق الكثير منهم على أن كلمة سرد تقترن دلاليا في العربية بالنسج والجودة و حسن الصوغ و البراعة في إيراد الأخبار ، و في تركيبها و تترد هذه المعاني مجتمعة أو متفرقة في

المعاجم اللغوية و مصادر الأدب العربي ، و قد كرس القرآن الكريم هذا المعنى في قوله تعالى : "أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ "[1] أي احكم يا داوود نسج الدروع و كن متقنا بضاعتها فاجعلها تامة الجودة و من المعنى اللغوي جرى اشتقاق الدلالة الاصطلاحية للسرد الذي يحيل على الإجادة في حبك الكلام ، و مراعاة الدقة في بنائه ، فالسرد تقدمة الشيء إلى الشيء في الحديث ، بحيث يؤتى به متتابعا فيه ، أي أنه نظم الكلام على نحو بارع التركيب تتلازم عناصره ، فلا تنافر يخرب اتساقها و السارد هومن يجيد صنعة الحديث ، و يكون ماهرا في نسجه ، و قد روى عن عائشة قولها " لم يكن النبي صلى الله عليه و سلم يسرد كسردكم لأنه كان يورده متماسك الأجزاء فلا يخل آخره بأوله و لا تفسد نهايته بدايته .."[2] .

و على العموم فإن السرد يقوم على جملة من العناصر التي تميزه عن غيره ، و لا يكون السرد سردا إلا بها ، و أهم عناصر السرد هو الراوي و المروي و المروي له .

و في الحقيقة أن كلمة السرد و السردية لم تأخذ بعدها الاصطلاح المعروف بين الدارسين إلا في حدود 1969 على يد الناقد المشهور" ورتودروف " و أما الباحث فلايمير بروب فقد تناول السرد في حديثه و بحثه عن مائة خرافة روسية ، حيث اكتشف ما يسمى بتسلسل الوظائف السردية عام 1928.

و الحكي هو محور السرد و الأساس الذي يقوم عليه الحكي يقوم على دعامتين أسياستين :

- أولا : أنه يحتوي على قصة ما تضم أحداثا معينة .
- ثانيا : أن تعين الطريقة التي تحكى بها تلك القصة و تسمى هذه الطريقة سردا

إن عملية الحكي تضمن حصة محكية بالضرورة ، و تتضمن أيضا شخص يحكي و شخصا يحكى له .

فالعملية السردية ينبغي أن تتوفر فيها ثلاث عناصر أساسية و هي الراوي أو السارد والحكاية أو المسرود ، المتلقي أو المسرود له .

فالسرد هو الكيفية التي تروى بها تلك القصة عن طريق الراوي[3] .

**الوظائف السردية :**

بدأت الحركة العلمية و الفكرية و الثقافية تزدهر في المشرق ابتداء من القرن الثاني للهجرة وبلغت قمة نضجها في القرن الثالث والرابع ، وهذه القرون الثلاثة تعتبر من أزهى العصور الأدبية ، حيث ازدهرت حركة التدوين والتأليف لتشمل المعاجم وكتب اللغة وكتب الفقه والحديث ، والتعبير والأدب.

واتجهت الكتابة نسبيا إلى الدقة والمنهجية والتنظيم والتخصص ، كما كان هناك التأليف في الكتب الموسوعية والعامة .

واشتهرت طائفة من الكتب في العربية تنتمي في أكثرها إلى القرن الثالث للهجرة ، عدها ابن خلدون مصادر للأدب ، وماسواها روافدلها وهي "البيان والتبيين للجاحظ" و"كتاب الكامل للمبرد" ، و"كتاب النوادر لأبي علي القالي" ، و"كتاب أدب للكاتب لابن قتيبة"[4]

وهذه الكتب تتوفر على كثير من النصوص السردية والأخبار والحكايات وهذه السرود الكثيرة التي تستوعب هذه الكتب وغيرها.

والأمر الذي لا شك فيه أن هذه المؤلفات والنصوص لابد أن يكون لها مقاصد وأهداف ترمي إليها.

وهذه المقاصد أطلق عليها مصطلح الوظائف السردية في المدارس الحديثة وهي كثيرة ومتعددة ، تطرق إليها الكثير من الباحثين الفرنسيين مثل "تدوروف ، بروب" ، وغيرهم

وتناولها الباحثون العرب منهم :عبد الله إبراهيم ، إبراهيم صحراوي ، سعيد يقطين ، عبد الفتاح كليطو ، وخاصة المتعلقة بالتراث السردي العربي

يتناول إبراهيم صحراوي ، هذه الوظائف السردية ويقسمها الى نمطين :

**1/ الوظائف الضمنية :**

**2/ الوظائف الطارئة :**

وتدخل تحت هذه الوظائف السردية وظائف فرعية كثيرة تدور كلها حول البعد التاريخي والبعد الايـــدولوجي والبعـــد الاجتماعي والبعد الثقافي والبعد الفكري .

وهذه الوظائف توجهها منظومات دينية اجتماعية وسياسية دينية[5].

وما يلاحظ أن السرد العربي القديم ، أن السارد فيه مفارق لمرويه في أغلب الأحوال زمانا ومكانا وحدثا ولاســـيما في الأساطير وقصص الأيام والأمثال والأخبار .

وما يفهم من كلام إبراهيم صحراوي

أن الوظيفة الضمنية هي التي تتحقق بطريقة أوتوماتيكية سواء أوعاها السارد أم لم يعها وسواء أقصدها أم لم يقصدها[6] .

والوظيفة الأساس للسرد العربي القديم هي النقل والأخبار والبيان .

ولكن تدخل تحت طائلة الوظيفة الضمنية وظائف أخرى كالوظيفة التحكمية : وهي التحكم المروى وتنظيم جزئياته ، أي المسألة تتعلق بفنيات السرد ، سواء كان كتابيا أم شفافيا.

ومنها مراعاة الخطاب في حد ذاته ،حتى يتحقق شد انتباه السامع المتلقي والتأثير عليه[7]

- **الوظيفة الابلاغية** : وهيتهتم بشد انتباه السامع لمتابعة أجزاء المسرود .

-**الوظيفة الايدلوجية التعلمية**: وهي التي تحقق قصد السارد و ما يرمي إليه في النهاية من نصه السردي و إقناعه بمضمون السرد و ما يلزم ذلك من تغيير لقناعاته[8] .

و أما الوظائف الطارئة في السرد العربي القديم ، فهي تتداخل مع الوظائف الضمنية تداخلا شديدا فيصعب التمييز بينها ، و على ما يبدو فإن هذه الوظائف الطارئة تتعلق بالحاجات المستجدة في المجتمع و هي تستمد مقاصدها من الثقافة السائدة و من المؤسسات الدينية و السياسية و الاجتماعية و يستدعيها النسق الثقافي و الفكري و الاجتماعي العربي عبر العصور ، استجابة لآثار التطور الحاصل و حاجيات الفرد و متطلبات حياته[9] .

و من بين المبررات الداعية إلى وجود وظائف جديدة و طارئة ماتعلق بالوظائف المستجدة التي تتمظهر علـــى مســـتعيد المسرودات ، و تتكيف في كل مرة سياقاتها الجديدة و ما تفرزه هذه السياقات من مقاصد كثيرة و متعددة ، و تســـتند هذه الوظائف كلها إلى مرجعيات توجهها و تتحكم فيها مضامنيا و فنيا ، فتستمد منها فلسفتها و شرعيتها[10] .

و هذه المرجعيات التي توجه وظائف السرد القديم ، تتنوع بحسب تنوع منظومات المبادئ و القيم السائدة في المجتمع .

- **تحقيق المتعة و الفائدة**: لعل من الوظائف الهامة في السرد العربي القديم ، إنه يتوسل إلى الجمع بين المتعة الفنية و الفائدة الاجتماعية و الأخلاقية ، بحيث نجد الأمرين في المادة السردية ،المتعة و الفائدة و الجد و الهزل ، و الصدق و الكـــذب و الحقيقة و الباطل و الممكن و المستحيل و الواقعي ، و المتخيل و المضحك والمبكي ،و المؤنس و الموحش[11] .

ومن القضايا المحورية في السرد العربي القديم :أن المتلقي يعتبر قطب الرحى في كل الوظائف السردية لأنه لولا هذا المتلقي لم يحدث لاسرد ولا تأليف

وهي كما يقول الكاتب :" إن السرد فعل تداولي مؤثر ، يندرج في نسق ثقافي يتحكم فيه بصورة تامة أشكالا ومضامين عبر منظومة من القواعد والمقاييس الاجتماعية والأخلاقية بالمفهوم الواسع للأخلاق"[12]

- ويذهب الكاتب إلى هذه التداولية في السرد العربي الذي يتمظهر في علاقة التأثير المتبادل بين السارد والمتلقي وفي أثـــر ذلك المجتمع وأنماط العيش فيه على عملية السرد برمتها .

وان كل الوظائف السردية في التراث القديم ،تبرز الطابع الأدائي النفعي بصورة مباشرة عندما يسير السارد إلى مقصـــده وطريقته في بلوغ مقصده [13].

- **وظيفة التوثيق و التأريخ و التعليم** :و هذه الوظائف تتجلى في كتب القصص و الأخبار في مجالات الأدب و التأريخ و العلوم الشرعية[14] .

و هذه الوظيفة المذكورة تأتي أهميتها في أنها تقوم مقام الحركة العلمية و الاستدلال على صحة الأخبار الواردة في السرود المنجزة .

و تصطلح وظيفة التاريخ في السرد العربي بحفظ قصص الأيام وأخبار الحروب

و التراعات المسلحة ، والتأريخ للنوادر والأخبار وقصص الخلفاء والقادة والوزراء وندمائهم من الظرفاء و المجان و الناس العاديين[15].

- **الوظيفة الإخبارية الإمتاعية** :كثير من النصوص الأدبية أنشئت لإحداث المتعة

و التسلية و الترويح عن النفس ،إضافة ما تأتي به من أخبار وحكايات ، ووصف للبطولات والمواقف التي تثير الفخر .

وتواصل نضج الموروث السردي العربي بفعل التطورات الجديدة التي شهدها الحياة العربية بعد دخول الإسلام وتغير الحياة العربية ، وامتزاج الشعوب والثقافات وتأثر بعضها ببعض خلال العصر العباسي الأول .

انتشر القص على نطاق واسع في المجتمعات العربية والإسلامية انتشارا عظيما ، وفتح الباب واسعا ، للتباري في الإمتاع وإثارة الإعجاب، وكانت للظروف السياسية والاجتماعية والثقافية السائدة دافعا للإقبال على المتعة والضحك ، وكثرة مجالس اللهو والمجون[16]

**الوظائف السردية من خلال النصوص**

**كتابات القرن 3 الهجري أنموذجا**

يلاحظ أن هذه النصوص المقترحة أنها لاتخرج عن الوظيفة العامة للسرد التي هي الأخبار، وهي وظيفة تتضمنها كل أنواع السرد القديم وهذه النصوص المختارة عبارة عن مقدمات لكتب يتعلق أكثرها بالأخبار، وفيها مايرد ذكر الخبر في عنوانه ، وهذه الكتب كلها تمت للأدب بصلة ، سواء أكانت هذه الصلة مباشرة مثل مانجد في كتاب البيان والتبيين للجـــاحظ (ت255هـــ) ، وكأدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد وهؤلاء تتوفر كتبهم على كثير من المباحث الأدبية واللغوية ، التي تتعلق بقواعد الكتابة والأساليب البلاغية وشروط البلاغة والفصاحة وغيرها ....

فنرى ابن قتيبة يتهم أهل زمانه بالتفريط في الأدب والميل إلى التكاسل والعجز

فيقول في مقدمة كتابه "أدب الكاتب"

(( فاني رأيت كثيرا من أهل زماننا كسائر أهله قد استطابوا الدعة ، واستوطنوا مركب العجز ، وأعفوا أنفسهم من كد النظر ، وقلوبهم من تعب التفكير ، حيث نالوا الدرك بسبب ، وبلغوا البغية بغير ألة ـــ ولعمري كان ذاك ، فأين همـــة النفس ، وأين الأنفة من مجالسة إليها ثم ))[17]

**الوظيفة الاجتماعية :**

ولما كانت الوظيفة الاجتماعية هي الغالبة في السرد العربي القديم ، وبما أن المتلقي هو قطب الرحي في العملية السردية ، نجد كل المؤلفين القدامى يخاطبون أشخاصا أو يوجهون اليهم الكلام مباشرة في مقدمات كتبهم ، والأمر ينطبق على مقدمات الكتب المذكورة .

جاء في مقدمة كتاب " البخلاء " للجاحظ قوله :

(( أنك قرأت كتابي في تصنيف حيل لصوص النهار ، وفي تفصيل حيل سراق الليل ، وأنك سددت فيه كل خلل ، وحصنت به كل عورة ، وتقدمت بما أفادك من لطائف البدع وينبهك عليه من غرائب الحيل فيها إلا عسى يبلغه كيد ، ولايجوزه مكر ))[18]

فالمتلقي أو المخاطب هو المقصود بالسرد ، وهو الذي توجه إليه الأخبار ، والحكايات ومن ثم فان ذلك يؤكد المقولة السابقة التي ذكرناها في بداية المداخلة .

وهي أن السرد العربي القديم فعل اجتماعي تداولي بامتياز .

والوظيفة الاجتماعية هي الغالبة على النصوص المقترحة ولكن تدخل تحتها طائفة من الوظائف الفرعية مثل : الوظيفة التاريخية ،والتوثيقية ، والتعليمية والايدولوجية ووظيفة التسلية .

ومن الظواهر الاجتماعية البارزة في هذه المقدمات المذكورة نجد :

**ضعف المستوى الثقافي والتقاعس في طلب العلم :** وهي ظاهرة ندد بها ابن قتيبة في كتابه السابق ، ورأى فيها أن الناس والمحسوبين على العلم خاصة انشغلوا عن طلبه بالتوافه من الأمور ، واكتفوا فيه بالقشور ، وتنكبوا عن مزية العلم والأخلاق يقول في ذلك :

(( غايات كاتبنا في كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف ، وأعلى منازلنا أديبنا أن يقول الشعر أبياتا في مدح قينة أو وصف كأس ، وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئا من تقويم الكواكب ، وينظر في شيء من القضاء وحد المنطق ثم يعترض على كتاب الله بالطعن ، وهو لايعرف معناه وعلى حديث رسول الله بالتكذيب ، وهو لايدري من نقله، قد رضي عوضا من الله ومما عنده أن يقال فلان لطيف أو فلان دقيق النظر يذهب إلىأنّ لطف النظر قد أخرجه عن جملة الناس وبلغ به علم ماجهلوه ، فهو يدعوهم الرعاع والغثاء ))[19].

أليس هذا يدخل في صميم السرد الاجتماعي ويؤدي وظيفة اجتماعية وهي تقويم الاعوجاج الذي ضرب المجتمع في العمق؟ وضرب ثقافته في الصميم .

و النص كذلك يبرز لنا أهم المعارف التي كان يتزود بها الكاتب أو الأديب على عهد ابن قتيبة ، وافتتان الناس بالعلوم المترجمة عن اليونان كالفلسفة و المنطق و الفلك كما يبرز النص الحالة النفسية التي صار عليها بعض المتعالمين و المتفيقهين الذين كانوا يدعون العلم ، و هم بعيدون عنه كما يرى الكاتب.

و يذهب ابن قتيبة في هذه المقدمة إلى نقد ظاهرة اجتماعية أخرى و هي ظاهرة التشدد و التزمت لدى أناس يتظاهرون بالتدين و يرفضون كل نكتة أو نادرة و خاصة من الذين يقرؤون كتاباته ،وهو يدافع عن التسلية و الضحك و يبين فائدتها في دفع الملل و البعث على النشاط في القراءة ، و هو مذهب السلف الذين سبقوا الكاتب، الذين كانوا يتكلمون على السجية و الوضوح و يبتعدون عن التعريض و الكناية ، فيقول : " بل الترخص مني فيه عن حكاية تحكيها أو رواية ترويها تنقصها الكناية و يذهب بحلاوتها التعريض ، و أحببت أن تجري في القليل من هذا على عادة السلف الصالح في

إرسال النفس على السجية و الرغبة بها عن لبسة الرياء و التصنع ، و لا تستشعر أن القوم فارقوا و تزهت و ثلموا أديانهم و تورعت"[20]

هذا رأي ابن قتيبة الذي ينتقد المتزمتين الذي يتظاهرون بالكلفة و الوقار ، و هم عكس الأسلاف الذين كانوا يتحدثون بدون تكلف و لا تزيد و لا تظاهر بالدين ، بل يذهب إلى ابعد من ذلك في استحسانه اللحن في الحكاية و الخروج عن قواعد الإعراب و التفصح لأن ذلك أحلى و أجمل و أقرب إلى الواقعية ، يقول : " و كذلك اللحن إن مر بك في حديث من النوادر مثلا فلا يذهب عليك أنا تعمدناه و أردنا منك أن تتعمده لأن الإعراب ربما سلب بعض الحديث حسنه و شاطر النادرة حلاوتها "[21].

و بعد هذا الكلام فإني أزعم أن ابن قتيبة قد وضع بعض الشروط للحكي في قوت متقدم منها السماح بالهزل قبل ظهور الكوميديا ، و السماح باللحن في زمن الفصاحة قبل الدعوة إلى الواقعية

**وظيفة الوعظ و الإرشاد و التوجيه :**

و هي من الأهداف الاجتماعية التي تدخل تحت السرد الاجتماعي و قد ورد عند الكتّاب المذكورين نماذج من هذا السرد و وظائفه .

**عند الجاحظ :**

يتوجه الجاحظ في مقدمة كتاب البخلاء إلى طائفة من أبناء المجتمع اتخذت البخل مذهبا و صارت تدافع عنه ، و تتعلل بالحجج الكثيرة منها الاقتصاد و ترك الإسراف و الذكاء و غيرها ... و لكن الجاحظ يشفق على هذه الطبقة و يصورها تصويرا يكشف عن مرضها بالحجة و المنطق فيقول :" وكيف يعد الذي يجمع بين الكد و قلة المزرئة و بين السهر و خشونة المضجع ، و بين طول الاقتراب و طول قلة الانتفاع ، و على علمه لأن وارثه أعدى له و أنه أحق بماله من وليه أو ليس هو أظهر الجهل و الغباوة ، وانتحل الغفلة و الحماقة، ثم احتج لذلك بالمعاني الشداد و الألفاظ الحسان "[22].

و الوظيفة الاجتماعية بارزة في نص الجاحظ الذي خاطب هذه الفئة بالعقل و المنطق و الدليل و ضرب الأمثلة و الشواهد متجها إليها بالخطاب المباشر ، و لو أنه كان يخاطب شخصا مفردا قد يكون فردا بعينه إلا أن هذه الصفة تنطبق على كثير من أبناء المجتمع في عهد الكاتب ، و ربما قد يكون أكثرها من غير العرب مثل أهل مرو الذين خصهم بجزء كبير من الكتاب .

و يستطرد الكاتب في الاحتجاج لرأيه مخاطب هذه الفئة بطبيعة المفرد :" إن كان اكتراثك مآثر الاجتهاد سترت نفسك و انفردت بطيب زاد ، و دخلت على الغمار وعشت عيش المستورين "[23].

لاشك أن الجاحظ يعرف أن الأمر ليس سهلا ، و أن هذه العادة التي استحكمت في نفوس الكثيرين من البخلاء لا يمكن إزالتها ببساطة ، و هو يصور هذه الصعوبة في قوله :" و إن كانت الحروب بينك و بين طباعك سجالا ، و كانت أسبابكما أمثالا و أشكالا أجبت الحزم إلى ترك التعرض و أحببت الاحتياط غلى رفض التكلف

و رأيت أن من جعل السلامة من الذم هو غنم و أن من آثر الثقة على التعري فقد حزم و ذكرت أنك إلى معرفة هذا الباب أحوج و أن ذا المروءة إلى هذا العلم أفقر و إني و إن حصنت من الذم عرضك بعد أن حصنت من اللصوص مالك ، فقد بلغت لك ما لم يبلغه أب رؤوف و لا أم رؤوم "[24]

و لا يخلو كتاب " عيون الأخبار " لابن قتيبة من تسديد النصح للقراء و المتلقين ، فقد ورد قول ابن قتيبة في مقدمة الكتاب ، " و لم أر صوابا أن يكون كتابي هذا على طالب الدنيا دون طالب الآخرة ، و لا خواص الناس دون عوامهم ، و لا ملوكهم دون سوقتهم

فوفيت لكل فريق منهم قسمه ، و وفرت عليه سهمه ، و أودعته طرفا من محاسن كلام الزهاد في الدنيا ، و ذكر فجائعها و الزوال و الانتقال "[25]

و هذه النصوص كثيرة في كتب الأقدمين لأن المهمة الوعظية الإرشادية في أذهان الكثير من الكتاب في ذلك العصر و خاصة عند رجل كابن قتيبة و الجاحظ فهما يعدان من أصحاب المذاهب و من قامات أهل العلم .

**الغرض التعليمي :**

يعد المقصد التعليمي من أهم الوظائف التي يلح عليها الكتّاب و يبرزونها في مصنفاتهم و ليس ذلك غريبا فكثير منهم كان يشتغل بالتعليم و يصنف لأجله و قد جاء في كلام ابن قتيبة في مقدمته من عيون الأخبار .

" هذه عيون الأخبار نظمتها لمغفل التأدب تبصرة لأهل العلم و تذكرة و لسائس الناس ومسوسهم مؤدبا للملوك مستراحا و صنفتها أبوابا" [26].

فالغرض التعليمي كان حاضرا في ذهنية ابن قتيبة ، و هو تعليم لكل الناس ستوي في ذلك الملوك و السوق ، و لا يبعد الجاحظ من الغرض التعليمي في مقدمة كتاب البيان والتبيين حيث وقف كثيرا عند مفهوم البلاغة و الفصاحة و أهميتها في الخطاب و شروط البليغ و شروط البلاغة ، والعيوب المتعلقة بالجهاز الصوتي و مخارج الحروف ، مستدعيا طائفة من الشواهد و الحجج من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية و النماذج الشعرية ،لستدل بها على ما يذهب إليه ، و لم يكتف بما ورد في الثقافة العربية ، بل صار يستدعي الثقافة الأجنبية مثل استشهاده بقول بزر جمهر الفارسي، و يقوم بشرح الشواهد متوقفا عند مباحث معجمية و أخرى صرفية وأخرى بلاغية و مباحث لسانية بصوتية[27]

و تعرّض لقضايا تتعلق بفقه اللغة و الكلمات الدخيلة مقدما لذلك جملة من النماذج للكلمات الفارسية و كذلك لا يخلو كتاب الكامل للمبرد من وظيفة و غاية تعليمية أشار اليها في مقدمة كتابه هذا ، فيقول :" هذا الكتاب الفناه يجمع ضروبا من الآداب بين كلام منثور و شعر منظوم مرصوف و عمل سائر ، و موعظة بالغة ، و اختبار من خطبة شريفة و رسالة بليغة ، و النية فيه أن نفسر فيه كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق و أن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحا شافيا حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفيا"[28].

**الامتناع و التسلية :**

أغلب الكتب المذكورة تتوفر على النكتة الملحة و النادرة المضحكة ، و يدعو أًحابها في مقدمات كتبهم صراحة إلى التسلية و الضحك ، و يرون في ذلك مساعدا على مواصلة القراءة و الترويح على النفس و الدعوة إلى النشاط ، من ذلك ما جاء في مقدمة عيون الأخبار لابن قتيبة :" و لم أخله مع ذلك من نادرة طريفة و فطنة لطيفة أو كلمة موحية و أخرى مضحكة لئلا يخرج عن الكتاب مذهب سلكه السالكون ... و لأروح بذلك عن القارئ من كد الجد و أتعاب الحق ، فإن الأذن مجاجة ، و للنفس حمضة و المزح إذا كان حقا و مقاربا لأحايينه و أوقاته و أسباب أو جبته ... ليس من تقبيح لا من المنكر و لا من الكبائر و لا من الصغائر إن شاء الله ".

إذن فذلك هو منهج الكتاب المتقدمين ، و مسلك سلكه الذين سبقوا ابن قتيبة و الجاحظ والمبرد .

و أما المقصود من المزاح عند ابن قتيبة ، هو الذي يكون على قدر الحاجة و لا يخرج عن اللياقة ، و يكون في أوقاته فهو من المباح لا إثم فيه إذا التزم بحدود الأخلاق لذلك فلا حرج في التسلية و الضحك لأنهما من محفزات القراءة و أنهما لم يوضعا اعتباطا و إنما كان لهما وظيفة سردية قصدها الكتاب و دافعوا عنها .

فالجاحظ كذلك يتناول هذه القضية في مقدمة كتابه " البخلاء " إذ يقول : " و لو كان الضحك قبيحا من الضاحك و قبيحا من المضحك لما قيل للزهرة و الحلي و القصر المبني كأنه يضحك ضحكا ، و قد قال الله جل ذكره " وانه هو اضحك و أبكى وانه هو أمات و أحيا" فوضع الضحك بحذاء الحياة ووضع البكاء بحذاء الموت[29] .

هكذا يرى الجاحظ و كتاب عصره وظيفة الضحك و التسلية و مهمتهما في السرد و الحكي ، و دفعهما للملل و الضجر و ينفرد الجاحظ بوظيفة أخرى هي وظيفة البكاء في الأعمال السردية، إذ أن القصص ليست كلها فرحا و تسلية، بل فيها ما هومحزن و مبك ، و إنه مثلما تكون للضحك فائدة فللبكاء فائدة أيضا ، و يقترب الجاحظ كثيرا من نظرية التراجيديا و الكوميديا في

أدب اليونان خاصة في دور المأساة في التطهير الذي يقول به أرسطو و إلا ادعى أن الجاحظ قد تأثر بكتاب فن الشعر و تبنى بعض ما جاء فيه و لكن الرجل تنبه لذلك من خلال ذكائه و تجربته إذ يقول في البكاء : " أنا أزعم أن البكاء صالح للطبائع محمود المغبة إذا وافق الموضع ، و لم يجاوز المقدار ، و لم يعدل عن المهمة ، و دليل على الرقة و البعد عن القسوة و ربما عدّ من الوفاء و شدة الوجد على الأولياء و هو من أعظم ما تفرد به العابدون و استرحم به الخائفون "[30].

**الخاتمة**

وفي الأخير يمكن القول ان السرد العربي القديم توفر على نصوص سردية كثيرة تجمع بين الخبر والحكاية والنادرة والملحة والأسطورة والقصة والمقامة والرحلة والسيرة وغيرها وهذه النصوص السردية تتوفر على وظائف اجتماعية وفنية وثقافية تؤديها وقد تنوعت هذه الوظائف بين الإخبار والتوثيق والإقناع والتسلية والتعليم والتربية وغيرها من الأغراض التي تحدثنا عن بعض منها في المداخلة حديثا مغتصبا يحتاج إلى إضافات وتفصيل في أبحاث أخرى إن شاء الله .

**الهوامش :**

1- ينظر الى لسان العرب لابن منظور، الجزء 4 ، باب السين.
2- ينظر موسوعة السرد العربي ، عبد الله ابراهيم، دار الفارس ، بيروت ، 2008 ،ج1 ، ص8
3- آسيا جريوي ، جماليات السرد العربي القديم ، جامعة محمد خيضر ، بسكرة ، ص2
4- ينظر المكتبة العربية والبحث ، محمد رضوان داية ، دار الفكر ، سوريا ، 1990 ، ص105-108.
5- ابراهيم صحراوي ، السرد العربي القديم ، الانواع والوظائف ، دار الاختلاف ، الجزائر ، ص 97.
6- ابراهيم صحراوي ، السرد العربي القديم ، المصدر نفسه ، ص97
7- ابراهيم صحراوي ، السرد العربي القديم ، المصدر نفسه ، ص97
8- ابراهيم صحراوي ، السرد العربي القديم، المصدر نفسه ، ص98
9- ابراهيم صحراوي ، السرد العربي القديم ، المصدر نفسه ، ص101
10- ابراهيم صحراوي ، السرد العربي القديم ، المصدر نفسه ، ص 101
11- ابراهيم صحراوي ، السرد العربي القديم ، المصدر نفسه ، ص102
12- ابراهيم صحراوي ، السرد العربي القديم ، المصدر نفسه ، ص 103
13- ابراهيم صحراوي ، السرد العربي القديم ، المصدر نفسه ، ص 130
14- ابراهيم صحراوي ، السرد العربي القديم ، المصدر نفسه ، ص 131
15- ابراهيم صحراوي ، السرد العربي القديم ، المصدر نفسه ، ص 146

16-ابراهيم صحراوي ، السرد العربي القديم ، المصدر نفسه ، ص 152
17-ابن قتيبة ، أدب الكاتب ، دار الجيل ن بيروت ، 1963 ، ص 05
18-الجاحظ ، كتاب البخلاء ، ص 01
19-ابن قتيبة ، أدب الكاتب ، ص 05
20-ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1925 ، ج1 ، ص م
21-ابن قتيبة ن عيون الأخبار ، ص م
22-الجاحظ ، كتاب البخلاء ، ص2.
23-الجاحظ ، كتاب البخلاء ، ص 04
24-الجاحظ ، كتاب البخلاء ، ص 05
25-ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ص ك
26-ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ص ي
27-الجاحظ ، كتاب البيان والتبيين ، دار المعارف ، القاهرة ، ص04.
28-المبرد ، كتاب الكامل ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ص 02 .
29-ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ص ل
30- الجاحظ ، كتاب البخلاء ، ص 06.